طبيعة معاداة قريش لرسول الله (صل الله عليه واله وسلم) في مطلع الدعوة الاسلامية

أ.د رحيم حلو محمد البهادلي

كلية التربية للبنات / جامعة البصرة

الملخص :

يتناول هذا البحث دراسة طبيعة الظروف التي جعلت من سادات مشركي قريش يقفون بوجه رسول الله (صل الله عليه واله وسلم) ودعوته الى الاسلام ، لان الظاهر للغالبية العظمى من الباحثين والدارسين في التاريخ الاسلامي يتصورون ان مشركي قريش تصدوا لرسول الله (صل الله عليه واله وسلم) ودعوته للإسلام كانت لأسباب دينية بحتة ، ولكن واقع الحال يشير الى ان هؤلاء المشركين ما كان يهمهم من الدين الجديد وانتشاره سوى ما سيسبب لهم من تأثير سلبي على اوضاعهم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ، سيما بعد ان تضمن في مبادئه ان لا فرق بين عبد وحر الا بالتقوى ، وان الناس جميعا سواسية في الحقوق والواجبات ، الامر الذي سوف يؤدي بطبيعة الحال الى نفور اعداد كبيرة من الفقراء والعبيد والموالي والجواري من اسيادهم المشركين وتركهم لخدمتهم ، كما ان اشارة رسول الله (صل الله عليه واله وسلم) الى ان تلك الاصنام والاوثان التي كانت تعبد وتقدس وتقدم لها النذور والهدايا هي عبارة عن حجارة لا تضر ولا تنفع ، الامر الذي يقود بطبيعة الحال الى تسفيهها ثم ترك عبادتها ، وهذا ما يؤدي الى الاضرار الاقتصادي لسادات مكة الذين كانوا يعتمدون على تلك الموارد بشكل كبير .

The Nature of the Quraysh's Hostility to the Messenger of God (PBUH) At the Beginning of the Islamic Call

Prof. Dr. Rahiem Hiloo M. Al-Bahadly
College of Education for Women / University of Basrah

Abstract :

This research deals with the study of the nature of the circumstances that made the polytheists of Quraish stand in the face of the Messenger of God (PBUH) and his call to Islam, because it seems to the vast majority of researchers and scholars in Islamic history that the polytheists of Quraish confronted the Messenger of God (PBUH) and his call to Islam was purely for religious reasons, but The reality of the situation indicates that these polytheists did not care about the new religion and its spread except what would cause them a negative impact on their social, political and economic conditions, especially after it included in its principles that there is no difference between a slave and a free person except by piety, and that all people are equal in rights and duties. Which, of course, will lead to the alienation of large numbers of the poor, male slaves, male and female slaves, from their polytheistic masters and leaving them to serve them, and the reference of the Messenger of God (peace be upon him) to the fact that those idols and idols that were worshiped and sanctified and offered to them vows and gifts are stones that do not harm or benefit. , Which naturally leads to insulting it and then abandoning its worship, and this is what leads to the economic damage to the masters of Mecca who were dependent on those resources to a great extent .

المقدمة :

تعد مكة المهد الاول لظهور الدعوة الاسلامية التي وقعت على عاتق رسول الله (صل الله عليه واله وسلم) محمد بن عبد الله القرشي الهاشمي المكي ، وفي مكة كانت عبادة الاصنام والاوثان هي السائدة في المجتمع المكي آنذاك ، اذ ليس في ذلك المجتمع المكي في فترة قبيل الاسلام حسب المعطيات التاريخية ما يشير الى انهم كانت لهم ديانة سماوية تعرف ، ومع ذلك الشرك والكفر المتفشي في مكة فقد كان هناك بعض الافراد من هم نصارى وآخرين كانوا يهودا ، كما ان اهالي مكة كانت لهم معرفة وعلم بوجود ديانات وعبادات اخرى في مدن مجاورة واقاليم مناظرة ، وهؤلاء كانوا يمارسون عباداتهم وطقوسهم في حرية تامة في بلدانهم وكذلك عند زيارتهم لمكة لتجارة ما او في مواسم الحج التي كانت تقام فيها اسواق عامرة .

وكان اصحاب تلك الديانات المعروفة النصرانية واليهودية يمارسون طقوسهم وعباداتهم بحرية تامة في مكة وفي مرأى من انظار سادات قريش المشركين ، ونحن لا نفترض ذلك جزافا بل ان مصادرنا الاسلامية تشير الى تواجد بعض الاشخاص من اصحاب تلك الديانات في مكة ، وعلى سبيل المثال لا الحصر كان ورقة بن نوفل الاسدي وهو عم السيدة خديجة الكبرى كان رجلا نصرانيا ، وان عبيد الله بن جحش الاسدي زوج رملة بنت ابي سفيان كان رجلا نصرانيا ايضا ، وربما غيرهم الكثير ، وهؤلاء وغيرهم من اليهود ايضا كانوا يمارسون طقوسهم وعباداتهم بشكل واضح وصريح ، وفضلا عن هؤلاء كانت هناك في المجتمع المكي جماعة تعرف (بالأحناف) وهؤلاء كانوا على دين سيدنا إبراهيم (عليه السلام)، وهم كانوا يعبدون الله عز وجل ومنهم ابناء هاشم بن عبد مناف جد رسول الله (صل الله عليه واله وسلم) ، ثم ان رسول الله (صل الله عليه واله وسلم) طالما كان يتعبد الله في غار حراء ، وكانت قريش على علم بجميع تلك الديانات وطقوسها ولم تتعرض لهم بسوء ، والسؤال الذي يطرح نفسه هنا هو لماذا وقفت قريش بوجه دعوة رسول الله (صل الله عليه واله وسلم) للإسلام وهو لم يكن بالدين او المفهوم الغريب عن مفاهيم المجتمع المكي ؟ وذلك السؤال هو محور بحثنا هذا وسوف يتم الاجابة عنه من خلال ما يطرح في بحثنا هذا ، وعلى النحو التالي :

المعتقدات الدينة في مكة قبيل الاسلام :

قبل ان نتطرق الى طبيعة معادات قريش لرسول الله (صل الله عليه واله وسلم) لا بد لنا ان نتعرف على طبيعة العبادات والطقوس الموجودة في المجتمع المكي ، اذ ان في التعرف عليها علاقة كبيرة بفهم طبيعة معادات قريش لرسول الله (صل الله عليه واله وسلم) .

واول تلك الاديان التي كانت معروفة في المجتمع المكي هي الديانة النصرانية ولو بنسبة ضئيلة ، فمع ان العبادات التي كانت سائدة في المجتمع المكي كانت عبادة الاصنام والاوثان فقد عرف في المجتمع المكي وجود بعض الافراد الذين يدينون بالنصرانية ، وهؤلاء على قلتهم فانهم كانوا يمارسون عباداتهم وطقوسهم بحرية تامة بدون ان يتعرض لهم بسوء أو مكروه ، اذ ليس في ممارسة عبادتهم طقوسهم ما يؤثر على مصالح قريش لا من بعيد او من قريب .

وعلى رأس هؤلاء النصارى في مكة كان ورقة بن نوفل الاسدي (١) ، وهو عم السيدة خديجة زوجة رسول الله (صل الله عليه واله وسلم) (٢) ، وكان ورقة بن نوفل من كبار النصارى وعلمائهم القسيسين (٣) ، وكان يقرأ الانجيل بالعربية (٤) ، وله علم الرسل والانبياء ، بحيث لما بعث رسول الله (صل الله عليه واله وسلم) ذهبت السيدة خديجة لعمها ورقة بن نوفل تخبره بالمبعث فقال لها : " هذا الناموس الذي انزل على موسى وعيسى واني ارى في المنام ثلاث ليال ان الله ارسل رسولا اسمه محمد وقد قرب وقته ولست ارى في الناس رجلا افضل منه " (٥) .

وفضلا عن ذلك فقد كان ورقة بن نوفل يتمتع بمكانة اجتماعية مرموقة وحسنة في الوسط المكي ولم يتعرض له بسوء جراء ديانته وعبادته ، بحيث لما تزوج رسول الله (صل الله عليه واله وسلم) بالسيدة خديجة ذهب لخطبتها ابو طالب بن عبد المطلب من عمها ورقة بن نوفل ، وتدل المحادثة التي جرت بينهما على انهما كانا من علية القوم وساداتهم ، وفعلا كان كل منهما ورقة وابو طالب كانا من سادات القوم وعليتهم بحسب مجريات الاحداث آنذاك (٦) .

وتدل بعض المرويات التاريخية ان ورقة بن نوفل كان يتقبل القبلة في عبادته (٧) ، مما يدل دلالة واضحة انه كان يمارس طقوسه وعبادته بحرية مطلقة ، وربما لم يكن وحده نصرانيا في مكة فربما كانت هناك اعدادا من النصارى على شاكلة ورقة بن نوفل او على هيئة اتباع له في دين النصرانية ، وان كان الحال كذلك فهذا يعني انه وجماعته كانوا يمارسون طقوسهم وعباداتهم بحرية تامة في المجتمع المكي ، وطبيعي ان ينتهي خبرهم الى مسامع سادات قريش وهم

الوثنيين المشركين ، فلا نرى منهم معترضا او ممتعضا من تلك الديانة السماوية التي تدعوا الى عبادة الخالق عز وجل ، ولو كان هناك من معترض او ممتعض من اسياد مكة المشركين ، لنكل بهم سادات قريش اشد التنكيل كما فعلوا تماما مع رسول الله (صل الله عليه واله وسلم) واتباعه في الفترة المكية من الدعوة الاسلامية .

ومن بين تلك النماذج النصرانية في المجتمع المكي لدينا ايضا شخصا يسمى عبيد الله بن جحش بن رئاب الاسدي ، وهو احد النصارى الذين كانوا يمارسون طقوسهم وعباداتهم بحرية مطلقة في المجتمع المكي الوثني ، اذ كان عبيد الله بن جحش نصرانيا قبل دخوله في الاسلام على حد قوله هو حين قال لزوجته أم حبيبة بنت ابي سفيان بعد أن ارتد عن الدين الاسلامي وهو في الحبشة ، قائلا لها : " يا أم حبيبة أني نظرت في الدين فلم أر دينا خير من النصرانية وكنت قد دنت بها ثم دخلت في دين محمد ثم رجعت إلى النصرانية " (٨) .

وحينما كان ابن جحش نصرانيا قبيل الاسلام لم يتعرض له احدا ما بسوء مع انه وفق ديانته ينكر نكرانا تاما عبادة الاصنام والاوثان التي كانت تعبد في مكة على وجه الخصوص ، وقد كان عبيد الله بن جحش يتمتع بعيش كريم وحياة هانئة الى درجة ان سيد قريش وزعيمها ابو سفيان بن حرب زوجه ابنته رملة بنت ابي سفيان وانجبت منه ابنتها حبيبة وبها كانت تكنى(٩).

وعلى الرغم من تواجد اليهود بكثرة في بلاد الحجاز الا ان تواجدهم كان يتركز في المدن الصالحة للزراع والمدن التجارية مثل يثرب والطائف ووادي القرى (١٠) ، وربما مدن اخرى ، الا ان مصادرنا الاسلامية تحجم عن ذكر تواجد اليهود في مكة الا اشارات نادرة جدا ، فقد ورد مثلا ان رجلا يهوديا اسمه (يوسف) من سكنة مكة قال لقريش في وقت ولد فيه رسول الله (صل الله عليه واله وسلم) : " يا معشر قريش هل ولد فيكم الليلة مولود ؟ " ، فقالوا بالنفي ، فقال لهم : " اخطأتم والتوراة ولد اذا بفلسطين وهو اخر الانبياء واخرهم " (١١) .

وسواء صحت تلك الرواية ام لم تصح فأنها تعكس لنا ان افرادا قليلون من اليهود كانوا متواجدين في مكة قبل الاسلام ، وهؤلاء حتما كانت لهم طقوسهم العبادية وممارساتهم الدينية التي كانوا يمارسونها بانتظام وحرية تامة وعلى مسمع ومرئ من اسياد قريش الوثنيين دون ان يتعرض لهم احدا بسوء او مكروه .

وبما ان مكة كانت تمثل مركز تجاري واقتصادي وثقافي وفكري ، فقد كان يأمها البعيد والغريب لأغراض تجارية واغراض فكرية ، وشيء طبيعي ان تكون هناك جاليات يهودية في مكة على الاقل في مواسم الحج واقامة الاسواق والمحافل الفكرية ، وهؤلاء لم يذكر لنا التاريخ انهم مورست تجاههم ممارسات تعسفية لردهم عن دينهم ومعتقدهم ، بل كانوا يمارسون طقوسهم وعياداتهم بكل حرية ويسر .

من جميع ذلك نقف على حقيقة وهي ان المجتمع المكي كان فيه الوثني وكان فيه النصراني واليهودي وربما البوذي أو ديانات اخرى ، وجميع تلك الاديان والمعتقدات كانت يمارس اصحابها طقوسهم الخاصة ، فلم يعترض احدهم على الاخر ، بل كانت هناك حالة من التسامح الديني فيما بينهم ، فلا سادات قريش تعترض عليهم ، ولا اصحاب تلك الديانات يمسون بشكل او باخر اصنام واوثان قريش او يطعنون فيها .

الدعوة الاسلامية وطبيعة موقف قريش منها :

اما عندما جاء رسول الله (صل الله عليه واله وسلم) بدعوته الى الاسلام فنجد ان قريشا واتباعها وكذلك اهل الكتاب وبالخصوص اليهود منهم يقفون بوجه رسول الله (صل الله عليه واله وسلم) ، في محاولة منهم للإجهاض على هذا الدين وهذا المعتقد بكل ما اوتوا من قوة وما امتلكوا من عزم طيلة حياة رسول الله (صل الله عليه واله وسلم) ، فلا كان يمنعهم منه واعز ولا يرشدهم عاقل ، اذ مارسوا انواع المضايقات النفسية والحرب الضروس والتعذيب الجسدي للمسلمين الاوائل في محاولة لمنعهم من اعتناق الدين الاسلامي الجديد .

بيد ان قريش لم تعترض على الدعوة الاسلامية في بادئ امرها ، إذ كان شأن المسلمين آنذاك شأن اصحاب الديانات الاخرى لعدة اسباب ، ولعل اهمها تكمن في أن دعوة رسول الله (صل الله عليه واله وسلم) للإسلام ومعرفة الله عز وجل لم يكن مفهوما غريبا عن مجتمع قريش في مكة ، لان عبادة الله عز وجل كانت معروفه لدى الداني والقاصي في المجتمع المكي ، حتى ان عبادتهم للأصنام والاوثان لم تكن خاصة بشخوصهم ، بل كانوا يتقربون بها الى الله عز وجل على حد اشارة ابن الاثير (١٢) ، كما ان هناك من الدلائل التي تؤكد على معرفة قريش بالله

عز وجل ، وهو ان بعض الاشخاص في مكة قبيل الاسلام من كان اسمه عبد الله ، كوالد رسول الله (صل الله عليه واله وسلم) عبد الله بن عبد المطلب على سبيل المثال (١٣) .

وكان في مكة مجموعة من الرجال الذين كان يطلق عليهم لقب الاحناف ، وهؤلاء هم من بقايا ديانة سيدنا ابراهيم (ع) ، وهو فيما يبدوا كان نفسه دين الاسلام ، بدليل قوله تعالى : (ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين) (١٧) . وهؤلاء الاحناف كان الدين الاسلامي امتدادا لهم بدليل اشارة الفقهاء الى القول في مطلع الصلاة وعند التكبير : " وجهت وجهي للذي فطر السموات والارض حنيفا مسلما ، على ملة ابراهيم ودين محمد وولاية امير المؤمنين والائمة من ذريتهما الطاهرين حنيفا وما انا من المشركين " (١٨) .

ولنا ان نتصور ان المجتمع المكي قبيل الاسلام وحتى بعده في العصور الاسلامية اللاحقة كان عبارة عن مجتمع مصغر ، وهو عبارة عن قرية صغيرة – ان صح التعبير – وان رسول الله (صل الله عليه واله وسلم) كان يذهب الى غار حراء يتعبد ويؤدي طقوس عبادية لا تخرج عن اطار معرفة الله عز وجل والتمعن في ماهية الخلق ، وان كان الحال كذلك فلا يعقل ذلك عن عدم معرفة عموم قريش بما كان يمارسه رسول الل (صل الله عليه واله وسلم) في وسط ذلك المجتمع الصغير .

وفضلا عن جميع ذلك فقد كان رسول الله (صل الله عليه واله وسلم) واباءه واجداده لم يعبدوا صنما ما او وثنا يعبد في مكة او غيرها ، فقد كان هاشم بن عبد مناف رجلا ورعا يعرف الله حق المعرفة قال عنه اليعقوبي : " واصطلحت قريش على ان يولى هاشم بن عبد مناف الرئاسة والسقاية والرفادة ، فكان اذا حضر الحج قام في قريش خطيبا ، فقال : يا معشر قريش ! انكم جيران الله واهل بيته الحرام ، وانه يأتيكم في هذا الموسم زوار الله يعظمون حرمة بيته ، فهم اضياف الله وأحق الضيف بالكرامة ضيفه ، وقد خيركم الله بذلك ، وأكرمكم به ، ثم حفظ منكم أفضل ما حفظ جار من جاره ، فأكرموا ضيفه وزواره " (١٩) ، اما جده عبد المطلب فقد تولى السقاية والرفادة بعد عمه المطلب بن عبد مناف الذي تولاها بعد وفاة اخيه هاشم (٢٠) ، وقد ورد ان عبد المطلب كان من حفر بئر زمزم ونقل الماء من زمزم الى عرفة (٢١) ، وكان بالإضافة الى ذلك يطعم الحجيج (٢٢) ، وكان ايضا اول من حرم الخمر والازلام قبل الاسلام (٢٣) ، وهو كذلك اول من سن قطع يد السارق في الجاهلية (٢٤) . اما عمه ابو طالب بن

عبد المطلب فقد كان سيد زمانه وله كانت السقاية والرفادة (٢٥) ، وكان رجلا شريفا في قومه مؤمنا بالله عز وجل احق الايمان (٢٦) .

من جميع ذلك نقف على حقيقة ان مفهوم الاسلام وقواعده كانت معروفة في المجتمع المكي ، وهناك من كان يمارس مبادئ الاسلام قبل البعثة ، ونرى صمتا ملحوظا من قبل سادات قريش قبالة تلك المفاهيم ، ليس ذلك وحسب بل نجد حتى عندما بعث رسول الله (صل الله عليه واله وسلم) لم نرى اعتراضا من قبل اسياد قريش على الدين الجديد بالشكل الذي قد يتصوره الغالبية ، وما ورد ان الدعوة الى الاسلام مرت بمرحلة سرية استمرت ثلاث سنوات وهي ما تسمى بالمرحلة السرية فيها اشكال كبير ، إذ كيف لنا أن نتصور اعداد من المسلمين قلوا او كثروا ان يمارسوا طقوسهم وعباداتهم وتجمعهم ولقاءاتهم في وسط مجتمع مصغر دون ان تنتهي طقوسهم الى مسامع اسياد قريش المشركين بشكل او بأخر ، فذاك اراه شخصيا امرا محال ، لان من خصوصيات المجتمعات المصغرة والمقفلة ان لا يخفى امرا ما وما بالك بأمر عظيم كأمر الاسلام دون تتسرب اخباره الى شخصا ما من خارج منظومة الاسلام ، فحتما يكون ذلك بالنفي ، واذا جزمنا بأن امر الاسلام قد وصل على اقل تقدير الى شخصا مشرك واحد لا اكثر ، فأن ذلك وحده كفيل بنشر خبر الدين الجديد خلال ساعات او اياما معدودات .

بداية الدعوة :

عندما بلغ رسول الله (صل الله عليه واله وسلم) سن الاربعين من عمره الشريف ، وفي احدى الايام وقد كان يتعبد في غار حراء الذي يقع في احدى الجبال المجاورة الى مكة (٢٧) ، نزل الوحي من عند الله عز وجل يبلغه برسالته السماوية ، وكان اول ما نزل عليه الآيات : (اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الاكرم ، الذي علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم) (٢٨) ، وعند عودته الى داره قص خبره على زوجته السيدة خديجة ومقربوه ، فكانت هذه دعوة فردية للإسلام ، واسلم في هذه المرحلة زوجته السيدة خديجة ، وابن عمه الامام علي بن ابي طالب (ع) الذي كان يقطن معه في داره وعمره يومذاك قرابة العشر سنين ، وصديقه المقرب ابو بكر ، وعن طريق ابو بكر – فيما يروى – كل من عثمان بن عفان ، والزبير بن العوام ، وطلحة بن عبيد الله ، وسعد بن ابي وقاص ، وعبد الرحمن بن عوف ، وابي

عبيدة بن الجراح ، والارقم بن ابي الارقم الذي كانت داره مقرا لبث الدعوة الاسلامية ، فضلا عن مجموعة من العبيد والموالي والفقراء (٢٩) .

ولم تفيدنا المعطيات التاريخية ان احدا من بين هذه المجوعة قد تعرض لمضايقة ما او تعرضا بسوء او مكروه ، مع يقيني التام ان خبر هذا الدين الجديد قد تناهت اخباره الى مسامع قريش ، ولم يكن ذلك السكوت عنهم لاعتراف قريش بهذا الدين ، بل تغافلوا امره لعدم تعارضه مع مصالحهم وأوضاعهم الاجتماعية والاقتصادية بعد .

وبعد تلك الفترة ببضعة سنوات نزلت الآية الكريمة قوله تعالى: ﴿**وانذر عشيرتك الاقربين**﴾(٣٠) ، فدعا رسول الله (صل الله عليه واله وسلم) بنو عبد المطلب للدخول في الاسلام ، واجتمع بهم قائلا لهم : " اني ما اعلم شابا جاء قومه بأفضل مما جئتكم به ، فلقد جئتكم بخير الدنيا والاخرة " (٣١) ، ثم بلغه رسالته فصدقه اهله وكذبه منهم اخرون سيما عمه ابا لهب وزوجته ، حيث اعترض عليه اشد الاعتراض قائلا له : " تبت لك ، الهذا دعوتنا ؟ " (٣٢) ، وكان اشد الناس عليه قساوة حتى نزلت فيه بعد ذلك ايه كريمة ، بقوله تعالى : (تبت يدا ابي لهب وتب ، ما اغنى عنه ماله وما كسب ، سيصلى نارا ذات لهب ، وامرأته حمالة الحطب ، في جيدها حبلا من مسد (٣٣) .

ثم نزلت الآيتان الكريمتان بقوله تعالى : ﴿**فاصدع بما تأمر واعرض عن المشركين * انا كفيناك المستهزئين**﴾ (٣٤) ، فدعا رسول الله (صل الله عليه واله وسلم) عموم قريش ثم خطب بهم قائلا : " يا معشر قريش ويا معشر العرب ، ادعوكم الى عبادة الله تعالى ، وخلع الانداد والاصنام ، وادعوكم الى شهادة ان لا اله الا الله واني رسول الله ، فأجيبوني تملكوا بها العرب وتدين لكم العجم ، وتكونون ملوكا في الجنة " (٣٥) .

وقبالة ذلك الخطاب اكتفى مشركي مكة بالاستهزاء به والسخرية منه وقالوا : " جن جنون محمد بن عبد الله "(٣٦) ، ولكنهم حينما شاهدوا اقبال الناس سيما الفقراء من عبيد وموالي وخدم الاسياد تعتنق الدين الجديد جن جنونهم ، واتخذوا موقفا حازما بوجه الدعوة الاسلامية ، ولما لم يجدي اقناع رسول الله (صل الله عليه واله وسلم) بترك هذا الدين ، ولأن المجتمع المكي كان مجتمعا قبليا ، وهو ما يعني انهم لا يستطيعوا الاساءة لرسول الله (صل الله عليه واله وسلم) وهو من قبيلة بنو هاشم ذات الثقل الاجتماعي المعروف ، توجهوا الى عمه ابا طالب عسى ان يترك

هذا الدين لأنه بدأ يسلب منهم اتباعهم وانصارهم وعبيدهم الذين وجدوا في الاسلام ما يضمن لهم حقوقهم ويجعلهم سواسية مع اسيادهم في الحقوق والواجبات ، فقالوا له : " كف عنا ابن اخيك ، فانه قد سفه احلامنا وسب آلهتنا وافسد شبابنا وفرق جماعتنا " ، ثم قالوا: " كيف ندع ثلاثمائة وستين الها ونعبد الها واحدا " (٣٧) .

ان المتمعن في هذا النص يجد ان هم قريش كان هو المحافظة على ولاء شبابهم ليس الا ، وهم طبعا يعنون بهم العبيد والموالي لهم اكثر من اهتمامهم بالعبادات والطقوس الجديدة ، فهم وقفوا بوجه الدين الجديد لا لماهيته بقدر ما كان اعتراضهم على فقدان مواليهم وعبيدهم ، ولدينا من المرويات التاريخية ما يؤيد رأينا هذا ، فقد ورد مثلا وإذا ما عدنا إلى الأيام الأولى لنشر الإسلام نجد أن أسياد مكة قد مارسوا ألواناً وضروباً شتى في تعذيب كل من اسلم من أهل مكة ليردوهم بذلك عن دينهم الجديد ، وكان غالبية من عذب من المستضعفين ومنهم مثلا بلال بن رباح ، وعمار بن ياسر وأبوه ووالدته سمية بنت الخياط ، وخباب بن الإرت ، وصهيب بن سنان ، وعامر بن فهيرة ، واميمة بنت رقيقة ، وجارية بنت عمرو ، وغيرهم الكثير (٣٨) .

ثم ان هؤلاء المستضعفين بمجرد شراءهم واعتاقهم يسقط عنهم العذاب ، اذ يشير السيد جعفر مرتضى ان ابو بكر او رسول الله (صل الله عليه واله وسلم) بحسب تضارب الروايات والآراء ، قد اشتروا كل من بلال الحبشي فكانت نجاتهما من العذاب وتركوا وشأنهم فلم يتعرضوا بهم بعد ذلك بسوء (٣٩) ، اذ يروي لنا ابن هشام قصة تعذيب بلال الحبشي بقوله : " كان ورقة بن نوفل يمر به وهو يعذب بذلك ، وهو يقول : أحد أحد ، فيقول : أحد أحد والله يا بلال ! ثم يقبل على امية بن خلف ، ومن يصنع ذلك به من بني جمح ، فيقول : أحلف بالله لئن قتلتموه على هذا لاتخذنه حنانا ،حتى مر به ابو بكر بن ابي قحافة يوما ، وهم يصنعون ذلك به ، وكانت دار ابي بكر في بني جمح ، فقال لامية بن خلف : ألا تتقي الله في هذا المسكين ؟ حتى متى ؟ قال : أنت الذي افسدته فأنقذه مما ترى ، فقال ابو بكر : أفعل ، عندي غلام اسود اجلد منه واقوى ، على دينك ، اعطيك به ، قال : قد قبلت ، فقال : هو لك ، فأعطاه ابو بكر غلامه ذلك ، واخذه فاعتقه " (٤٠) .

ولو تمعنا بهذا النص قليلا نجد ان قريش ما كانت تعذب المسلمين الاوائل ككل وبصورة عامة ، بل كانت تعذب المستضعفين منهم والفقراء الذين كانوا خدما لهم وعبيدا ، كانت تعذبهم

ليس لاعتناقهم الدين الجديد ، بل كان ذلك التعذيب وذلك الترهيب لتركهم الخدمة لهم ، بحيث ان امية بن خلف رضي ببديل عن بلال بعبدا اخر وتركه وحال سبيله . ولو كان تعذيبهم للمسلمين الاوائل لاعتراض هذا الدين لكانوا قد عذبوا المسلمين ذات الثقل الاجتماعي الكبير ايضا ، فلما مثلا لم يعذب رسول الله (صل الله عليه واله وسلم) ، او يعذب ابو بكر ، او غيرهم الكثير ممن اسلموا ؟ والاجابة على ذلك هو انهم لم يشكلوا بعدا عبئا ثقيلا يقع على عاتقهم ، فنجد ان امية بن خلف يعذب بلال ويترك رسول الله (صل الله عليه واله وسلم) وابو بكر ، مع علمه التام ان رسول الله (صل الله عليه واله وسلم) ابو بكر ومن معهم هم كانوا هم سبب اسلامه.

كما ورد ان عمر بن الخطاب حينما كان كافرا مشركا كان يعذب امرأة جارية عند بني عدي – قبيلة عمر بن الخطاب – لاعتناقهما الدين الاسلامي ، فابتاعها ابو بكر من بني عدي ثم اعتقها ، وتركت حال سبيلها (٤١) .

وعند العودة الى هجرة المسلمين الاوائل الى الحبشة لا نعتقد انهم جميعا هربوا من تعذيب قريش ، صحيح أن قسما منهم هربوا من بطش قريش وهم الفقراء والمستضعفين والعبيد والموالي ، الا اننا نجد في تلك الهجرة شخصيات كبيرة لم ينالها التعذيب لثقلهم في المجتمع المكي آنذاك ، وقبائلهم كانت تتمتع بنفوذ اجتماعي كبير ، سيما جعفر بن ابي طالب وهو من بنو هاشم ، وعثمان بن عفان وهو رجل من بني امية ، وعبيد الله بن جحش الاسدي الذ كان زوجا لرملة بنت ابي سفيان ، وابو حذيفة بن عتبة بن ربيعة ، وعتبة كان سيدا من سادات قريش ، وعبد الرحمن بن عوف ، وعثمان بن مظعون ، وكان هؤلاء من علية القوم واشرافهم ، ثم لحق بهم قوما اخرين على رأسهم جعفر بن ابي طالب ومعه امراته اسماء بنت عميس ، واخرون غيرهم كثير(٤٢)

فهؤلاء لا نعتقد ان هاجروا الى الحبشة بسبب مضايقات قريش لهم او تعذيبهم ، لان التعذيب والمضايقات كانت تطال فقط طبيعة العبيد والموالي المسلمين ، لان في اسلامهم تركهم لخدمة اسيادهم من مشركي قريش ، اما بقية ممن هاجروا فكانوا كما ذكرنا من القبائل العربية ذات الثقل الكبير في المجتمع المكي .

نعم قد يكون العبيد والموالي الذين اعتنقوا الاسلام هاجروا فرارا من بطش قريش ، ولكن بقية القوم ما هاجروا فرارا لانهم بالأساس لم يتعرضوا الى تعذيب ما او مضايقة تذكر ، فربما او يقينا هاجروا بالمسلمين الفقراء المستضعفين ، او ربما ارادوا ان يؤمنوا نشر الدعوة الاسلامية بحرية ويسر ، بدليل ان هؤلاء المهاجرين لم يعودوا الى المدينة بعد هجرة رسول الله (صل الله عليه واله وسلم) وقيام دولة مستقلة ، بل ظلوا هناك يمارسون نشر الدين الاسلامي وبناء قاعدة اسلامية سيما بعد اعلان ملك الحبشة الدخول في الاسلام (٤٣) ، ونرى جعفر بن ابي طالب لم يعود الى المدينة الا في حدود السنة السابعة للهجرة (٤٤) .

اذن كانت معارضة قريش للإسلام لأنه حرمهم من عبيدهم وجواريهم الذين بدأوا يدخلون الى الاسلام ويتركوا الخدمة لديهم بدليل – كما قلنا – انهم تركوا التعرض للكبار والوجهاء والاعيان الذين دخلوا الى الاسلام .

وهذا كان حال المشركين مع المسلمين في بداية الدعوة الاسلامية ، اما حينما بدأ رسول الله (صل الله عليه واله وسلم) يبطل عبادة الاصنام والاوثان ، ويشير الى انها عبارة عن اصنام واوثان لا اكثر ولا اقل ، مما بدأ ذلك الايذان بانهيار الاقتصاد المكي بصورة عامة وسادات قريش بصورة عامة ، هنا تنبهت قريش الى الخطر الذي يداهمها ، لان انكار عبادة الاصنام والاوثان كانت المرتكز الاساسي التي يقام عليها تسلطهم السياسي في مكة والعرب ، ثم كانت مرتكزا اقتصاديا لسادات مكة من جراء تقديم النذور والقربان لتلك الاصنام من قبل اهالي مكة والعالم العربي في مختلف المناسبات وخصوصا في موسم الحج (٤٥) .

هنا بدأ المشركون بالتعرض لعموم المسلمين ماعدا الممتنعين بقومهم ، يروي ابن كثير : " فأما رسول الله صلى الله عليه وسلم فمنعه الله بعمه ، وابو بكر منعه الله بقومه " (٤٦) ، فحينما تيقن المشركين الخطر الذي يداهمهم ذهبوا الى ابو طالب يشكون له ابن اخيه ، روى ابن هشام: " مشى رجال من اشراف قريش الى ابي طالب : عتبة وشيبة ابنا ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف ، وابو سفيان بن حرب بن امية ، فقالوا : يا ابا طالب ، إن ابن اخيك قد سب الهتنا وعاب ديننا وسفه احلامنا وضلل آبائنا ، فإما ان تكفه عنا ، واما ان تخلي بيننا وبينه فانك على مثل ما نحن عليه من خلافه ، فقال لهم ابو طالب قولا رفيقا ، وردهم ردا جميلا ، فانصرفوا عنه ، ثم انهم مشوا الى ابي طالب مرة اخرى ، فقالوا له : يا ابا طالب ان لك سنا وشرفا ومنزلة فينا

، وانا قد استنهيناك من ابن اخيك فلم تنه عنا ، وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا ، وتسفيه احلامنا ، وعيب آلهتنا ، حتى تكفه عنا او تنازله واياك في ذلك حتى يهلك احد الفريقين ، ثم انصرفوا عنه ، ثم ان قريشا حين عرفوا ان ابا طالب قد ابى خذلان رسول الله صلى الله عليه وسلم واسلامه ، وإجماعه لفراقهم في ذلك وعداوتهم ، مشوا اليه بعمارة بن الوليد بن المغيرة ، فقالوا له : يا ابا طالب هذا عمارة بن الوليد انهد فتى في قريش واجملها ، فخذه فلك عقله ونصره ، واتخذه ولدا فهو لك ، واسلم لنا ابن اخيك هذا الذي خالف دينك ودين آبائك ، وفرق جماعة قومك ، وسفه احلامهم ، فنقتله ، فإنما هو رجل برجل ، فقال : والله لبئس ما تسومونني ! اتعطونني ابنكم اغذوه لكم ، واعطيكم ابني تقتلونه ؟ هذا والله لا يكون ابدا " (٤٧) .

ومن خلال قراءة متمعنة في النص اعلاه نستشف ان سادات قريش لم يكن اعتراضهم على ماهية الدين الجديد كدين جديد بل كان اعتراضهم على ما سيسبب لهم من فقدان مكانتهم كأسياد على مكة وهم الذين كانوا يتمتعون بمكانة اجتماعية مرموقة في الوسط المكي ، وان هذا الدين سوف ينهي تلك المكانة وسوف يجعل منهم اتباع بعد ان كانوا اسيادا لهم الملك ، والاموال ، والسلطة ، والاتباع ، والعبيد ، والجواري ، والواردات المالية والعينة من تلك التي كانت تهدى للأصنام والاوثان كهدايا ونذور ، بل سوف يقضي هذا الدين على كل تلك المكانة والاحلام ، وهذا ما تفوه به ابو سفيان لولده معاوية فيما بعد حينما جمعت له ولاية الشام في عهد الخليفة الثاني عمر بن الخطاب بقوله : " إن هؤلاء الرهط من المهاجرين سبقونا وتأخرنا فرفعهم سبقهم وقصر بنا تأخرنا فصاروا قادة وصرنا أتباعا وقد ولوك جسيما من أمورهم فلا تخالفهم فانك تجري إلى أمد فنافس فيه فان بلغته أورثته عقبك " (٤٨) .

هوامش البحث ومصادره :

١-ينظر القاضي النعمان : شرح الاخبار في فضائل الائمة الاطهار (ع) ، (تحقيق : محمد الحسيني الجلالي ، مؤسسة النشر الاسلامي – قم المقدسة ، د.ت) ، ١ / ١٨٥ ، ٣ / ١٦ .

٢-الطوسي : الأمالي ، (ط١ ، دار الثقافة الإسلامية – قم المقدسة ، ١٤١٤ هـ) ، ص ٢٠٢ .

٣-ابن ابي جمهور : عوالي اللئالي العزيزية في الأحاديث الدينية ، (تحقيق : الحاج آقا مجتبى العراقي ، ط١ ، مطبعة سيد الشهداء – قم المقدسة ، ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م) ، ٣ / ٢٩٨ .

٤-ابن حنبل : المسند ، (دار صادر – بيروت ، د . ت) ، ٦ / ٢٢٣ .

٥- ابن شهر اشوب : مناقب ال ابي طالب ،(تحقيق : لجنة من أساتذة النجف الاشرف ، المطبعة الحيدرية – النجف الأشرف ، ١٩٥٦ م) ، ١ / ٤٢ .

٦- ينظر المجلسي: بحار الانوار ، (ط٢ ، مؤسسة الوفاء – بيروت ، ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م) ، ١٦ / ١٤ – ١٥.

٧- ينظر ابن ابي عاصم : الاحاد والمثاني ، (تحقيق : باسم فيصل : ط١ ، دار الدراية ، ١٩٩١م) ، ١ / ٤٢٧ .

٨-ابن سعد : الطبقات الكبرى ، (دار صادر . بيروت / د . ت) ، ٨ / ٩٧ ؛ الحاكم النيسابوري : المستدرك على الصحيحين ،(تحقيق : د. يوسف المرعشي ، دار المعرفة – بيروت ، ١٤٠٦ هـ) ، ٤ / ٢٠ – ٢١ .

٩-الحاكم النيسابوري: المستدرك، ٤/٢٠؛ البيهقي : السنن الكبرى ، (دار الفكر – بيروت ، د . ت) ، ٧ / ٧١ .

١٠- ينظر مثلا ياقوت الحموي : معجم البلدان ، (دار إحياء التراث العربي . بيروت / د . ت) ، ١ / ٤٤٦ ، ٥١٢ ، ٢ / ٦٧ ، ٢٦٢ ، ٤٠٩ ؛ اسرائيل ولفنسون : اليهود في بلاد العرب ، (مطبعة الاعتماد – القاهرة) ، ص ١٠ وما بعدها .

١١- الصدوق : كمال الدين وتمام النعمة ، (تحقيق : علي اكبر الغفاري ، مؤسسة النشر الإسلامي – قم المقدسة ، ١٣٦٣ هـ) ، ص ١٩٧ .

١٢- ابن الاثير : النهاية في غريب الحديث ، (تحقيق : طاهر أحمد الزاوي ، ومحمود محمد الطناجي ، ط٤ ، مؤسسة اسماعيليان . قم / ١٢٦٤ م) ، ٢ / ٤٦٧ .

١٣- ينظر مثلا ابن كثير : البداية والنهاية ، (تحقيق :علي شيري ، ط١، دار إحياء التراث العربي – بيروت/١٤٠٨ هـ) ، ١ / ١٩١ .

١٤- سورة آل عمران ، الآية ٦٧ .

١٥- ابن الصلاح الحلبي : الكافي في الفقه ، (تحقيق : الشيخ رضا استاذي ، مكتبة امير المؤمنين (ع) – اصفهان ، ١٤٠٣ هـ) ، ص ١٢٢ .

١٦- اليعقوبي : تاريخ ، (دار صادر – بيروت ، د . ت) ، ١ / ٢٤٢ .

١٧- ابن سعد : الطبقات الكبرى ، ١ / ٨٣ .

١٨- ابن عنبة : عمدة الطالب في انساب آل أبي طالب ، (تحقيق : محمد حسن آل الطالقاني ، ط٢ ، المكتبة الحيدرية – النجف الاشرف ، ١٣٨٠ هـ / ١٩٦١ م) ، ص ٢٤ .

١٩- ابن سعد : الطبقات الكبرى ، ١ / ٨٣ .

٢٠- ابن حبيب : المنمق في أخبار قريش ، (تحقيق : خورشيد أحمد فاروق ، ط١ ،عالم الكتب – بيروت ، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م) ، ص ٤٢٢ .

٢١- ابن رستة : الاعلاق النفيسة ، (اعتناء م . ج ، دي خويه ، ليدن ، ١٨٩١ م) ، ص ١٩١ .

٢٢- ينظر ابن ابي الحديد : شرح نهج البلاغة ، (تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط١ ، دار إحياء الكتب العربية ، ١٣٧٨ هـ / ١٩٥٩ م) ، ١٥ / ٢١٩ ؛ المجلسي : بحار الانوار ، ٣٥ / ١٣٣ .

٢٣- ابن حبيب : المنمق ، ص ٤٢٢ .

٢٤- ابن رستة : الاعلاق النفيسة ، ص١٩١ .

٢٥- ابن سعد : الطبقات الكبرى ، ١ / ٨٥ .

٢٦- ينظر الصالحي الشامي : سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد ، (تحقيق : الشيخ عادل احمد عبد الموجود ، الشيخ علي محمد معوض ، ط١ ، دار الكتب العلمية – بيروت ، ١٤١٤ هـ / ١٩٩٣ م) ، ١ / ١٦ .

٢٧- ابن سعد : الطبقات الكبرى ، ١ / ١٩٤ .

٢٨- سورة العلق ، الآيات ١ – ٥ .

٢٩- ينظر ابن حبان : الثقات ، (ط١ ، مجلس دائرة المعارف العثمانية – الهند ، ١٣٩٣ هـ) ، ١ / ٥٣ ؛ المتقي الهندي : كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال ، (تحقيق : الشيخ بكري حياني ، والشيخ صفوة السقا ، مؤسسة الرسالة – بيروت ، ١٤٠٩ هـ / ١٩٨٩ م) ، ١٣ / ٧٩ .

٣٠- سورة الشعراء ، الآية ٢١٤ .

٣١- سورة الحجر ، الآيتان ٩٤ ، ٩٥ .

٣٢- الطبرسي : إعلام الورى بأعلام الهدى ، (ط١ ، مؤسسة آل البيت (ع) – قم المقدسة ، ١٤١٧ هـ) ، ١ / ١٠٦ .

٣٣- الراوندي : قصص الانبياء ، (تحقيق : الميرزا غلام رضا ، ط١ ، مؤسسة الهادي – قم المقدسة ، ١٤١٨ هـ) ، ص ٢١٦ .

٣٤- الراوندي : قصص الانبياء ، ص ٢١٦ .

٣٥- ينظر على سبيل المثال ، ابن هشام : السيرة النبوية ،(تحقيق : سهيل زكار ، ط١ ، دار الفكر – بيروت ، ١٩٩٢ م) ، ١/١٧٣ ، ٢٠٩- ٢١٠ ، ٢١١ ؛ ابن سعد : الطبقات الكبرى ، ٣/١٦٥ ، ٢٢٧ ، ٢٣٠ ، ٢٣٢ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٤/ ١٢٣ ، ٨/ ٢٥٥-٢٥٦ ، ٢٦٤ ؛ الزبير بن بكار : جمهرة نسب قريش وأخبارها ، ١/ ٤١٥-٤١٦ ؛ اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي ، ٢/ ٢٨ ؛

الطبري : تاريخ الرسل والملوك ، (تحقيق : نخبة من العلماء الأجلاء ، مؤسسة الأعلمي ـ بيروت / د . ت) ، ٢ / ١٥٣ .

٣٦- السيد جعفر مرتضى : الصحيح من سيرة النبي الأعظم ، (ط٤ ، دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع – بيروت ، ١٤١٥ هـ / ١٩٩٥ م) ، ٣ / ٩٠ .

٣٧- ابن هشام : السيرة النبوية ، ١ / ٢١٠ .

٣٨- ابن هشام : السيرة النبوية ،١ / ٢١١ .

٣٩- ابن هشام : السيرة النبوية ، ١ / ٢١٣ – ٢١٤ .

٤٠- ابن هشام : السيرة النبوية ، ١ / ٢١٠ .

٤١- ابن هشام السيرة : السيرة النبوية ، ١ / ٢١١ .

٤٢- ينظر مثلا ابن حجر : فتح الباري شرح صحيح البخاري ، (ط٢ ، دار المعرفة للطباعة والنشر – بيروت ، د . ت) ، ٧ / ١٤٣ – ١٤٤ .

٤٣- ينظر ابن سيد الناس : عيون الاثر في فنون المغازي والشمائل والسير ، (مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر – بيروت ، ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م) ، ٢ / ٣٢٩ – ٣٣٠ .

٤٤- ينظر ابو الفرج الاصفهاني : مقاتل الطالبيين ، (تحقيق : كاظم المظفر ، ط٢ ، مؤسسة دار الكتاب للطباعة والنشر – قم المقدسة ، ١٣٨٥ هـ / ١٩٦٥ م) ، ص ٦ .

٤٥- ينظر مثلا ابن حجر : فتح الباري ، ٩ / ٤٩١ .

٤٦- ابن كثير : السيرة النبوية ، (تحقيق : كاظم المظفر ، ط٢ ، مؤسسة دار الكتاب للطباعة والنشر – قم المقدسة ، ١٣٨٥ هـ / ١٩٦٥ م) ، ١ / ٤٩٤ .

٤٧- ابن هشام : السيرة النبوية ، ١ / ١٧٢ .

٤٨- ابن عساكر: تاريخ دمشق الكبير، (تحقيق: علي شيري، دار الفكر. بيروت، ١٤١٥هـ)، ٧٠ / ١٨٦ .